أسامه بن منقذ وشعره

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

« تتمة »

— ٩ —

ولأسامة نظرات صائبة فى الحياة ، أوحى إليه بها تجاربه ، وطول عمره ، وما تلب عليه من حوادث الزمان وعبر الأيام .

يرى أسامة لكل شيء فى الحياة نهاية ، فلا بقاء لأمر ، ولا خلود لحادث ، فللسرور غاية ينتهى إليهما ، وللأحزان حد تقف عنده ، وإذا كانت الحياة تجرى على هذا المنوال ، فمن الواجب استقبال حوادث الأيام بحسن الصبر ، وقلة الاهتمام ، فإن الشدائد إذا كانت ستنقضى وتزول ، فمن البعث أن يزيد المرء فى آلام نفسه :

خفض عليك ، فللامور نهاية وإلى النهاية كل شيء صائر

فاستقبل صروف الزمان بالصبر :

رالق إذا طرقتك بقلب محتسب صبور

بل إن هذه النظرة تنتهى بصاحبها إلى قلة الاكتراث بما فى الحياة من سعادة أو شقاء :

لما رأيت صروف الدهر تلعب بالبرايا
يعلو بها هذا ، ويهبط ذا ، وقصرهم المنايا
ورأيته مسترجعا نزر المواهب والعطايا
متغاير الأحوال مختلف الضرائب والسجايا
لا نعمة فيه تدوم ولا تدوم به البلايا
لم أغتبط فيه بفا ئدة ، ولم أخش الرزايا

والمرء يتغلب على شدائد الحياة بالصبر :

إذا ماعداخطب من الدهر فاصطبر فان الليالى بالخطوب حوامل
فكل الذى يأتى به الدهر زائل سريعا ، فلا تجزع لما هو زائل

وليس الصبر وسيلة لتحمل المكروه ، حتى ينقضى فحسب ، ولكنه الطريق إلى نيل الأمل ، والظفر بالأمانى :

اصبر تنل ما ترجيه ، وتفضل من جاراك شأو العلا سبقا وتبريزا

أستطيع أن أعد أسامة بهذه النظرة إلى الحياة متفائلا ، إذ هو عند الشدة واثق من زوالها ، وإن كان الأمر على ذلك ، فلا معنى لليأس ، ولا خير فيه :

يا آلف الهم لا تقنط فأيأس ما تكون يأتيك لطف الله بالفرج
ثق بالذى يسمع النجوى ، وينجى من السلوى ويستنقذ الغرقى من اللجج

وإذا كان كل شيء فى هذه الحياة إلى انقضاء ، فمن الواجب ألا يدع المرء فرصة سعادة تمر ، من غير أن يأخذ منها بالنصيب الأوفى :

وتغنم اللذات إن عمرها مر السحائب

وأوحت إليه تجاربه فى الحياة أن القرب من السلطان غير مأمون العواقب ، ولا شهى الثمرة ، فنادى بالبعد عنه ، وإيثار العيش فى خمول وهدوء :

أرض الخمول ، نعش به فى نجوة مما تخاف ، ومن معاندة المدى

أما الحياة فى جوار ذوى السلطان فى خطر دائم ، وقلق لا يهدأ :

لا تقربن باب سلطان ، وإن ملأت هباته غير ممنون بها ، الطرقا
فإن أبوابهم كالبحر راكبه مروع القلب يخشى دهره الغلقا

وأسامة ممن يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويدين بالحظ ، ويرى الرزق مقسوما لا حيلة فى تدبيره :

فوض الأمر راضيا جف بالكائن القلم
ليس فى الرزق حيلة إنما الرزق بالقسم
دل رزق الضعيف رهـ ـو كالحم على وضم
وافتقار القوى تر هبه الأسد فى الأجم
أن للخلق خالقا لا مرد لما حكم

ولكن الناس جشعون ، يتكالبون على الحياة ، ولا يزهدون فيها إلا متكلفين مكرهين .

— ١٠ —

وأفرد أسامة فى ديوانه بابا للرثاء ، خص جزءا كبيرا منه برثاء والده أبى بكر عتيق ، وكان قد وصفه بين أترابه قائلا :

عتيق كالهلال ، إذا تبدى لسارى الليل من تحت الغيوم
تقول إذا به الأتراب حفوا : أهذا البدر مابين النجوم

وأكاد ألمس فى تشبيهه بالهلال يبدو لسارى الليل ، أنه كان أملا لأبيه ، طالما تمناه ، ليكون رفيقا لولده الآخر : مرهف ، فلا جرم كان لموته لذعة ألم فى قلبه ، أمضته ، فمضى إلى شعره يشكو إليه وقدة الحزن ، ولا سيما أنه نكب به وقد قارب الثمانين من العمر ، لا أمل عنده فى خلف يأتى به .

وأسامة يحدثنا عن شغل فؤاده الدائم بابنه الراحل فيقول

كيف أنساك ياأبا بكر أم كيف اصطباري، ماعنك صبري جميل
أنت حيث اتجهت فأسودي عيني ، وقلبي ممثل ، لا تزول

ويصف لنا انصرافه بعد زيارة قبره ، يملأ قلبه الأسى والشجن :

أزور قبرك والأشجان تمنعني أن أهتدي لطريق حين أنصرف
فما أرى غير أحجار منضدة
قد احتوتك ، ومأوى الدرة الصدف
فأنثني ، لست أدري أين منقلبي
كأنني حائر في الليل معتسف

وقد أثار فيه هذا الحادث المؤلم ذكرى من مضى من أهله ، فأخذ يندبهم ، ويتوجع لمصيرهم ، بل أثار فيه الألم لحياته القلقة المشردة التي لاتأوي إلى وطن :

رمتني في عشر الثمانين نكبة من الثكل يودي حملها من له عشر
على حين أفنى الدهر قومي، ولم تزل لهم ذروة العلياء والعدد الدثر
فلم يبق إلا ذكرهم وتأسفي عليهم، ولي يبقى التأسف والذكر
وأصبحت لاآل يلبون دعوتي ولا وطن آوى إليه ولا وفر
كأني من غير التراب ، فليس لي
من الأرض ذات العرض دون الورى شبر

ولكن أسامة ينتهي بالتسليم للقدر ، ما دام ذلك مصير الأحياء أجمعين ، وأن الدنيا كلها ، ما دام ذلك حتمي أمرها ، لا تستحق عناء طلبها ، ولا التعب في جمع ما يخرج المرء منها وهو صفر اليدين .

— ١١ —

ليس في غزل أسامة هذه الحرارة القوية التي تشعرنا بقلب دلهه الحب ، وأضنته لوعة الغرام ، ولا أكاد أتبين له إحساسا تفرد به ، أو لمحات امتازبها، وليس معنى ذلك أنه لم يذق الحب . بل أرجح أنه ذاقه ، وإن كان لم يشغل قلبه كله . وقد استعار أسامة تشبيهات الأقدمين وأساليبهم في وصف عواطف الحب . ومما يلحظ على غزله أنه شاك حزين ، لا تكاد تلمح فيه ابتسامة سرور ، وقد يرق أسامة أحيانا ، ويتخذ أوزانا مرقصة ، وتحس ببعض نبضات الحياة في غزله كقوله :

قل لمن أوحش بالهجر جفوني من كراها

والذي أوهم عيني أن في النوم تذاها :

يا ملولا قلما استر عى عهودا ، فرعاها
يا ظلوما كلما استعطفته ، صد وتاها
زدت في تيهك والشيء إذا زاد تناهى
تنقضي دولة الحسن ، وإن طال مداها
راحتي لو سمع الشكوى إليه ، ووعاها
غير أن الصم لا تسمع دعوى من دعاها
وهو لو نادى عظامي رمة لبى صداها

هذا ، وكان أسامة عندما يبدأ غرضا من أغراض شعره ، يجعل روح غزله مناسبة لهذا الغرض، واستمع إلى غزله في مفتتح قصيده عتاب إذ يقول :

ولوا ، فلما رجونا عدلهم ظلموا فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مر يوما بفكري ما يريبهم ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم
ولا أضمت لهم عهدا، ولا اطلعت على ودائعهم في صدري التهم

وعلى هذا النسق مضى ، حتى قال :

وبعد، لو قيل لي: ماذا تحب، وما مناك من زينة الدنيا ؟ لقلت: هم
هم مجال الكرى من مقلتي، ومن قلبي محل المنى، جاروا أو اجترموا

وهاك من غزله في قصيدة استعطاف :

أطاع ما قاله الواشي ، وما عرفا فصار ينكر منا كل ما عرفا

— ١٢ —

وعتاب أسامة فيه رقة ورفق بالغ ، واستعطافه جدير أن يستل الضغائن من القلوب ، تشعر فيه بحرارة العاطفة ، وصدقها ، يقول لابن عمه يستعطفه :

هبني أتيت بجهل ما قذفت به فأين حلمك والفضل الذي عرفا
ولا، ومن يعلم الأسرار، حلفة من يبر فيها أنى ، إن قال ، أو حلفا
ما حدثتني نفسي عند خلوتها بما أتنفني فيه إذا انكشفا

وبعد، فشعر أسامة من النوع الجزل الفخم، لا تكاد تجد فيه من الهنات إلا ما يعد ، ويحصى، فهو في عصره يوضع في مقدمة الشعراء الذين جددوا شباب الشعر ، وكسوه حلة من الفخامة ، والقوة ، والجلال .

أحمد أحمد بدوي
مدرس بكلية دار العلوم